فقه أهل البيت عليهم السلام

فصليّة فقهيّة متخصّصة

ملف خاص

شرف الدين مساهمات تأسيسية في الفقه المقارن

- شرف الدين- السيرة الذاتية
- لماذا فقه أهل البيت؟
- شرف الدين و المباني الفقهية للوحدة
- فقه الخلاف عند شرف الدين- إرث النبي نموذجاً
- منهج شرف الدين في نقد الفقه السنّي
- فقه الوفاق في تراث شرف الدين
- فقه الخلاف عند شرف الدين- فدك نموذجاً
- شرف الدين و علما الدارية و الرجال
- حوار مع آية الله الگرامي
- عمل الأجير لغير المستأجر
- الاستنساخ البشري

٣٨

العدد الثامن و الثلاثون- السنة العاشرة ١٤٢٦ هـ/٢٠٠٥ م

فقه الوفاق

في تراث الإمام شرف الدين

□ السيد منذر الحكيم

١ ـ تاريخ المصطلح:

لئن كان مصطلح فقه الخلاف يعود استعماله إلى عصر الشيخ الطوسي ﷺ متمثلاً في كتابه الكبير المسمّى بالخلاف، فإنّ مصطلح فقه الوفاق قد استعمله العلّامة الراحل الشيخ محمد مهدي شمس الدين ﷺ لأوّل مرّة ـ فيما نعلم ـ في مقال له عن البعد الفقهي في شخصية الإمام شرف الدين كان قد قدّمه للمؤتمر التكريمي الأول الذي عقد ببيروت سنة ١٩٩٣م[١]، حيث اعتبر كتابي شرف الدين: «الفصول المهمة في تأليف الأُمة» و «أجوبة مسائل جار الله» نموذجاً لما سمّاه بـ «فقه الوفاق»[٢]. كما اعتبر جملة أُخرى من كتبه[٣] نموذجاً لفقه الخلاف المصطلح بين الفقهاء والأُصوليين.

ولا مانع من أن يكون العلّامة شمس الدين قد استلهم ذلك من تقابله مع مصطلح فقه الخلاف الذي قد تداول الفقهاء والأُصوليون المتأخرون ذلك، غير أننا حينما نعود إلى تراثنا الفقهي الإمامي نلاحظ في تصانيف شيخنا المفيد ﷺ عنوانين يلفتان النظر إلى تداول مفهوم هذا المصطلح في نهايات القرن الرابع ومطلع القرن الخامس الهجريين. والظروف التأريخية التي عاشها المفيد والمرتضى والطوسي ﷺ تعين على إمكان طرح مثل هذا المفهوم الذي سوف

نبحث عنه كمدلول لمصطلح فقه الوفاق.

والعنوانان هما: «الإشراف في عامّة فرائض أهل الإسلام» و«الإعلام فيما اتفقت فيه الإمامية من الأحكام»؛ فإنّ هذين العنوانين يشيران إلى أن مفهوم «فقه الوفاق» كان غرضاً من أغراض التأليف، سواء على صعيد الوفاق مع سائر المذاهب أو على صعيد الوفاق في خصوص اتجاهات المذهب الإمامي آنذاك (٤).

إذاً، من ناحية تأريخية يمكننا أن نبحث عن جذور «فقه الوفاق» في مدرسة أهل البيت عليهم السلام الفقهية، كما هي حقيقة قائمة في سيرة أهل البيت عليهم السلام الرسالية حين فوّت الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام الفرصة على الانتهازيين الذين أرادوا إثارة الخلاف والنزاع بعد رحيل الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم في خصوص قضية اغتصاب الخلافة والإمامة من الإمام علي عليه السلام الذي نص الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على إمامته، فبادر الصحابة إلى الاستئثار بموقعه ومصادرة الخلافة بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بحيث لم يتركوا للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام موضع قدم فيها، فكان ما كان من الإمام عليه السلام، حيث صبر وفي عينه القذى وفي حلقه الشجى بالرغم من أنه كان يرى نهبهم لتراثه، ولكنه آثر إحياء دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونشره ومواجهة الانحراف بشكل آخر يفوّت فيه الفرصة على الانتهازيين أمثال أبي سفيان ومن حذا حذوه في ذلك العصر.

والإمام شرف الدين وإن اعتنى بفقه الخلاف في كتابه «مسائل خلافية» ـ كما اعتنى بل قد أسس «فقه الوفاق» تأسيساً حديثاً في كتابه «الفصول المهمة في تاليف الأُمة» ـ لكنه لم يستعمل هذا المصطلح وان كان مؤمناً بمفهومه وبضرورته وبضرورة السعي لتعميقه وتأصيله في مجتمعنا الإسلامي وفي أروقته العلمية عند الفرق الإسلامية جميعاً(٥).

ومن هنا يمكن القول بأنّ العلّامة شمس الدين قد سبق المعاصرين في

إبداع واستعمال مصطلح «فقه الوفاق» حسب ما اطّلعنا عليه من دراسات فقهية معاصرة.

٢ ـ تحديد المصطلح:

قال العلّامة شمس الدين ﷺ: «نعني بفقه الوفاق: المذاهب الكلامية للفرق الإسلامية حين يُبحث في وجوه الخلاف بينها، لا بهدف ترجيح أحدها على الآخر في هذه المسألة أو تلك... بل حين يبحث في علاقتها بوحدة المسلمين باعتبارهم أُمة واحدة، وأنّ اختلاف الفرق في المسائل الكلامية هل يقتضي أو لا يقتضي اختلاف الأُمة نفسها وانقسامها من حيث كونها أُمة مسلمة تجاه القضايا التي تتصل بسيرورتها التأريخية وتفاعلها فيما بينها ومع العالم من حولها» (٦).

اذاً، فقه الوفاق ـ بحسب هذا التحديد ـ يُعنى بوجوه الخلاف لا بوجوه الوفاق. هذا أولاً.

كما إن دائرة وجوه الخلاف هذه هي المسائل الكلامية لا الفرعية الفقهية ثانياً، وبالتالي ينحصر البحث في هذه المسائل الخلافية الكلامية في مدى تأثير الخلاف على مبدأ وحدة الكلمة للأُمة المسلمة ثالثاً.

بينما يتّسع المصطلح ـ وأعني به مصطلح «فقه الوفاق» ـ من حيث المفردات التي يشتمل عليها، ومن حيث الأهداف التي يستهدفها هذا المنحى الفقهي لأكثر من ذلك الذي جادت به قريحة العلّامة شمس الدين ﷺ في هذا النص.

ومن هنا يمكن أن نقول: إن الفروع الفقهية المختلف فيها ـ والتي يتعصّب لها البعض ـ تدخل في هذا المضمار، حيث يزعم البعض أن هذه الخلافات هي ذات تأثير على أساس تديّن الإنسان المسلم مادام يخرج من دائرة واحدة من

المذاهب الأربعة، أو على الأقل هكذا يتعامل أرباب المذاهب مع الأتباع حين يسألون عن مدى جواز التعبّد بغير مذهبهم.

كما إنّ الفروع والأُصول المتّفق عليها بين المذاهب الإسلامية والتي توحّد بينهم في كثير من أنماط السلوك والفكر والخُلُق لهي جديرة بالدخول في البحث من حيث ضرورة تحديدها، كما فعل الشيخ المفيد في كتابه «الإعلام» وإن خصّ بحثه ذلك بما اتفقت عليه الإمامية من الأحكام، وكما فعل أيضاً في كتابه «الإشراف» حيث ذكر أن موضوعه في عامّة فرائض أهل الإسلام.

ثم إن نفس «مبدأ الوحدة» مبدأ إسلامي قرآني عام وضرورة من ضرورات الإسلام، وهو جدير بالبحث الفقهي من حيث طبيعته وحقيقته وحدوده وعن تشريعه وفلسفة تشريعه، وجدير بالبحث عن لوازمه ودلالاته وأبعاده وآثاره وعن مميزات أدلته فقهياً، كما فعل الإمام السيد عبدالحسين شرف الدين ﷺ في كتابيه «الفصول المهمة» و«أجوبة مسائل جار الله»[٧].

وتدخل محاولتا الإمام شرف الدين في كتابيه: «المراجعات» و «النص والاجتهاد»[٨] أيضاً في نفس الإطار الذي حدّده له العلّامة شمس الدين ﷺ.

وقد تناول العلّامة شرف الدين هذا الحقل ـ الذي برّزه وأثاره العلّامة شمس الدين في مقاله هذا في ثنايا الكتاب التأسيسي لشرف الدين أعني «الفصول المهمّة في تأليف الأُمة».

٣ ـ دواعي الاهتمام بفقه الوفاق:

بعد أن توسّعنا في دائرة البحث التي يعتني بها العلماء في فقه الوفاق وارتأينا ألاّ يتلخّص الاهتمام بأصل مبدأ الوحدة وتأصيله فقط، كما ارتأينا ألاّ نقف عند قضية الخلاف في الأُصول أو الفروع لنبحث عن مدى تأثيرها على الوحدة من حيث الحكم الفقهي الذي يقرّ الخلافات الفقهية ضمن إطار الوحدة

الإسلامية العامة، ويؤكّد التعايش السلمي رغم الاختلاف في الفروع والأُصول، فإننا نلمس ضرورة الاهتمام بفقه الوفاق من حيث تأثيره على منهج البحث الفقهي عند سائر الفرق الإسلامية إن استطعنا الإلمام بكل ما اتفق عليه أهل الإسلام، وجمع كل الأحكام التي أجمعت عليها الأُمة الإسلامية بشتى مذاهبها؛ إذ تصبح هذه المجموعة هي الإطار الفقهي الذي يجمع الشمل، ويحدّد الخطوط الحمراء التي لا تُتجاوز من قِبل علماء المذاهب الإسلامية.

وهكذا يكون فقه الوفاق الإطار الموحِّد، ويعبّر عن الثوابت التي لا ينبغي تجاوزها والمحكمات التي يعود إليها كل مذهب رغم تنوّع الاتجاهات في استنباط الأحكام واختلافها في المناهج الخاصة بها، وبذلك يكون فقه الوفاق الضرورة الأُولى لتطوير فقه الخلاف إلى مستوى الاتجاه به نحو توحيد الأُمة والتقارب بين مذاهبها، لتلتقي في نقاط ومحاور جديدة تحتاجها في مسيرتها التكاملية التي تفرضها عليها ضرورات الحياة والتي بشّر بها قرآن ربّها حين قال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ ﴾ (٩).

٤ ـ تاريخ تأسيس فقه الوفاق:

لقد أسسّ القرآن «مبدأ التفقه في الدين»، وينبغي ألّا ننغلق على أنفسنا في فهم مصطلح «التفقّه» و«الفقه»، حيث يشاء البعض أن يحصره بالبحوث الفقهية الاستدلالية المتعارفة لدى الفقهاء، ولاسيما حين تحدّد مرحلة هذا الفقه في تاريخ التشريع الإسلامي الإمامي بمرحلة غيبة الإمام المهدي عليه السلام، حيث تتزامن أواخر مرحلة الفقه الروائي أو الفقه المأثور مع بدايات مرحلة الفقه الاجتهادي (١٠).

وقد سار النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيت الرسالة في طريق فتح باب التفقه في الدين بشكله الصحيح، وتعميق هذا المبدأ وتبيين معالمه وفتح آفاقه وأبعاده،

وإيجاد تيّار فكري قوي وثلّة مثقّفة بثقافة الكتاب والسنة تحمل مشعل الهداية الربّانية على مدى القرون والأجيال، وتلتزم بمنهج صحيح لهذا التفقّه، وتقوم بسدّ الحاجات الحقيقية المستجدّة في كل عصر.

وأوامر القرآن الكريم المتظافرة بالاعتصام بحبل الله جميعاً، واتحاد آحاد الأُمة على التمسّك به وعدم التفرّق والتشرذم والتنازع، هي الرصيد الأوّل لمبدأ الوحدة الإسلامية ولفقه الوفاق بمعناه الواسع الذي بيّنّاه، بدءاً بضرورة التماسك والتعاضد والتكاتف وصيرورة المسلمين يداً واحدة في كلّ الظروف والحالات، وانتهاءً بحرمة التفرّق وشقّ عصا المسلمين.

٥ ـ فقه الوفاق في السيرة والسنّة النبوية الشريفة:

وجاءت سيرة النبي الأعظم ﷺ وأهل بيته الأطهار وخطاباتهم للأُمة لتؤكّد هذا المبدأ الذي وحّد القبائل المتنازعة والشعوب المتفرّقة في ثقافاتها واتجاهاتها في عصر النبي ﷺ، كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ** ﴾ (١١).

وحين عيّن النبي ﷺ للمسلمين طريق الوحدة وبيّن لهم الضمانات اللازمة من خلال أحاديث الثقلين المتعدّدة بقوله ﷺ: «إني تارك فيكم ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي»(١٢)، لم يكتفِ أهل البيت عليهم السلام بالنصح والإرشاد، بل جسّدوا هذا المبدأ بكل دقّة وأمانة حتى حين انتُزعت منهم الإمامة السياسية غصباً وعدواناً عليهم وإبعاداً لهم مما آثرهم الله به.

لقد طرح أهل البيت عليهم السلام مبدأ الوحدة الإسلامية بكل قوّة؛ شعاراً وشعوراً وسلوكاً مميّزاً، وأصّلوه وعمّقوه بسيرتهم رغم كلّ الانحرافات التي طالت الأُمة، ورغم كلّ الإقصاءات التي حصلت لهم من قِبل الحكّام أعداء الإسلام وأعداء الأُمة الذين لبسوا لبوس الإسلام وراحوا يتبجّحون بالوحدة وخوف الفتنة حين

عَدّوْا على آل بيت الرسول وشرّدوهم ومزّقوهم شرّ تمزيق. وقد جعل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إمامتهم للأُمة أماناً من الفرقة ومحوراً مهمّاً من محاور الوحدة التي يلتقي عليها كل المسلمين.

فالكتاب والسنّة هما الرصيد الأول لهذا المبدأ، وهما اللذان طرحا فقه الوفاق كمفهوم وكمبدأ أساس في حياة الأُمة الإسلامية، ونظّرا له خير تنظير، وقد تناساه الحكّام وتغافلوا عنه واستعملوه بشكل يحقّق لهم مصالحهم حين انحرفوا عن الصواب.

٦ ـ فقه الوفاق في سيرة أهل البيت عليهم السلام :

ورغم المحاولات المبذولة لإبعاد الأُمة عن أهل البيت عليهم السلام ـ الذين جعلهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم محور الوحدة الحقيقية والمطلوبة في مقاييس الرسالة الإسلامية ـ فإنّ أهل البيت عليهم السلام لم ينفصلوا عن الأُمة، بل حاولوا الاحتفاظ بحضورهم الفاعل في الساحة وتواجدهم بين جمهور الأُمة وعلى أصعدة شتى ومستويات مختلفة، سواء على مستوى توجيه النخبة وقيادتها فكرياً وثقافياً ودينياً، وسواء على مستوى التعامل المبدئي مع الحكّام من خلال النصح والإرشاد وعدم إعطاء فرص للاحتواء والذوبان في جهاز الحاكمين وركبهم، وسواء على مستوى الجماهير الذين يبحثون عن قدوة عملية ونماذج رسالية تروّي عطشهم وتسدّ حاجاتهم العاطفية والسلوكية.. وهم في كل الظروف ورغم كل الخلافات التي حصلت من خلال إبعاد الحكّام المنحرفين للأُمة عن مصادر الرسالة وينابيعها السليمة من كل غبش وغش وتشويش، فإنهم هم الذين جسّدوا مبدأ الوفاق والوحدة بشكل رائع لا مثيل له، مؤثرين طاعة الله ورضاه المتمثل في تحقيق وحدة الأُمة حتى على حقوقهم الخاصّة بهم، وهم بذلك قد بلوروا فقه الوفاق بعلى درجاته وأسمى مُثله وأنواعه، ليرتقوا بالأُمة من الحضيض إلى القمّة، ومن ردى الشقاق والتمزّق إلى هدي الوحدة والاتفاق والتآلف والوئام (١٣).

٧ ـ فقه الوفاق في مدرسة أهل البيت عليهم السلام :

وقد سار علماء مدرستهم عليهم السلام على منوالهم ونهجهم، فسلكوا مسلكهم وكتبوا فقه الخلاف من منطلق توحيد الأُمة وتقريبها نحو الأهداف الرسالية المنظورة لها، كما نجد ذلك واضحاً فيما ألّفه روّاد الفقه الإسلامي في نهايات القرن الرابع ومطلع القرن الخامس الهجريّين كالشيخ المفيد والسيد المرتضى والشيخ الطوسي رحمهم الله ومن حذا حذوهم من فقهاء هذه المدرسة المباركة (١٤).

بيد أنّ الإمام السيد عبدالحسين شرف الدين قدس سره الذي عاش عصر الاستعمار ومحاولاته لتمزيق الأُمة الإسلامية تحت شعار التحضّر والتقدم العلمي والتقني قد أتقن خطّته في لمّ شمل المسلمين وتوحيد أُمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم توحيداً ينطلق من أُسس علمية نظرية قرآنية ونبوية، وسدّ في كتاباته معظم أنواع الخلل والضعف المحتمل، وأتمّ الحجة على أرباب المذاهب من خلال مصادرهم ومراجعهم، ولم يكتفِ بنصوص الكتاب والسنّة بل أردفها بفتاوى علمائهم كيما يسدّ طريق التأويل والتوجيه الذي هو أعتى سلاح عند النخبة إن أرادت الخروج على الأُصول والمبادئ والقيم ـ لا سمح الله ـ برداء وزيّ علمي طبعاً (١٥).

٨ ـ مميّزات منهج شرف الدين:

وهكذا يكون الإمام شرف الدين قدوةً للعلماء في تأسيسه لفقه الوفاق في أوّل مؤلّفاته التقريبية: «الفصول المهمة في تأليف الأُمة» (١٦)، وقدوةً لهم في منهجه الوحدوي الذي سلكه في فقه الخلاف في جملة من مؤلّفاته التي سميت بأسماء شتّى مثل: «مسائل خلافية» أو «مسائل فقهية»، ومثل «النص والاجتهاد» الذي بحث فيه أعمق المسائل الخلافية بنفس وحدوي تقريبي يحاول فيه بيان جذور الاختلاف وأسبابه العميقة (١٧).

وقد استطاع الإمام شرف الدين بمنهجه العلمي وأصالته وعمقه أن يتسلّق

إلى مستوى ريادة هذا الخطّ الوحدوي الذي تبعه فيه جملة من علماء المذاهب، سواء في الأزهر الشريف أو حضارة النجف العلمية أو حواضر إيران الإسلامية، حيث تجسّدت ريادته لمن تلاه ممّن كتب في فقه الوفاق وفقه الخلاف، أمثال: الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء[١٨]، والشيخ محمد رضا المظفر، والشيخ عبد الحسين الأميني[١٩]، والسيد محمد تقي الحكيم[٢٠]، والسيد مرتضى العسكري[٢١]، والشيخ أسد حيدر[٢٢]، والسيد الشهيد محمد باقر الصدر، والإمام السيد حسين البروجردي، والشيخ محمد تقي القمي، وأقرانهم من علماء الأزهر الشريف[٢٣].

حتى بزغ نجم الإمام روح الله الموسوي الخميني ﷺ، حيث سار على المنهج نفسه، ولم يتجاوز الأُصول ولا الفروع التي آمن بها، ولكنه أصبح آية من آيات الوحدة وتجسيداً حقيقياً لمبدأ توحيد المسلمين ضدّ أعدائهم.

٩ ـ منهج الإمام شرف الدين (الخطّ العام):

وحين استهدف الإمام شرف الدين تثبيت مبدأ الوحدة الإسلامية وإقراره كواقع في الحياة الاجتماعية والسياسية للمسلمين، انطلق من مقدّمات مقبولة لدى الفريقين؛ ليتمّ الإقناع وإتمام الحجّة المقبولة لدى كلّ فريق.

وهذا هو المنهج الذي اتّبعه في حواره مع الشيخ سليم البشري في كتابه القيّم: «المراجعات»، وقد انتهى فيه إلى نتائج باهرة حيث تمّ الاقناع، وهو يتمّ لعامة من يقرأ هذا الكتاب عادةً. ويكفيك ما دوّنه أحد المستبصرين في كتابه «المتحوّلون»[٢٤] الذي أورد فيه أرقاماً حقيقية عن الذين كتبوا عن أسباب استبصارهم وعن منهجهم في ذلك، ويتبيّن من خلاله دور كتاب «المراجعات» في تحقيق عملية الاستبصار، أو التحوّل الثقافي للنخبة والنتائج المحمودة لمنهج شرف الدين فإنّه يثير لكلّ باحث أسئلة حقيقية لا تتركه حتّى يصل إلى مرفأ اليقين وشاطئ الاطمئنان. ويبلغ ساحل النجاة من الشكوك

والإثارات وتراكمات الماضي السحيق.

هذا هو المنهج العام الذي يتضمّن بدوره مجموعة من الخطوات العلمية التي تحقّق القناعة اللازمة لكل منصف، وقد سار على ذلك الإمام شرف الدين بشكل علمي واضح لم ينحرف في منهجه رغم وعورة الطريق.

وقد كتب العلّامة شمس الدين عن منهج الامام شرف الدين ما هذا نصّه:

« ونلاحظ أنّ الإمام شرف الدين قد التزم بهذا النهج التزاماً صارماً فيما وصل إلينا من أبحاثه في فقه الخلاف وفي فقه الوفاق.

ففي فقه الخلاف في كتاب « مسائل فقهية »[٢٥] وفي رسالته المخطوطة عن السجود على التربة الحسينية نلاحظ أنّه قد استند في تقرير رأي مذهب الإمامية إلى مسلّمات الكتاب والسنّة المقرّرة في فقه المذاهب الأُخرى، ولم يذكر أدلة مذهب الإمامية إلّا قليلاً وعلى نحو الإشارة العابرة، بحيث لولا هذه الإشارات القليلة لحسب القارئ الذي لا يعرف المذهب الفقهي للإمام شرف الدين أنّه فقيه من فقهاء المذاهب غير الإمامية يناقش آراء فقيه لغير الإمامية »[٢٦].

وهذا عنصر مهمّ جدّاً قلَّما يستطيع الباحث المعتقد برأي خاصّ وبمدرسة معيّنة أن يتخلّى عن رأيه حين مناقشة الآخرين بكلّ موضوعية، وكأنّه صاحب نفس المدرسة التي ينطلق منها للمناقشة، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على قدرته الفائقة على التجرّد والتخلّي عن آرائه الخاصة، والتجرّد التامّ من كلّ خلفية مذهبية للوصول إلى أقصى درجات الموضوعية.

وأمّا منهجه في فقه الوفاق الذي يهدف إلى العبور من حالة القطيعة والشتات إلى التواصل والتفاعل والتكامل والوحدة على أساس الاختيار والقناعة لا الضرورة والإلجاء، فلابد من اعتماد الحوار على الحجّة المشتركة بين

الطرفين، فإنه قد أبدع فيه أيضاً ضمن التزامه بالمنهج العلمي الموضوعي التزاماً صارماً.

ونقاط الإبداع تتّضح من خلال متابعة الفصول التي عنونها وبحث عنها ـ والتي تبلغ اثني عشر فصلاً ـ بعد إعادته النظر فيما ألّفه ونَشره في الطبعة الأُولى.

١٠ ـ منهج شرف الدين في «الفصول المهمة»:

ويمكن عرض منهجه الذي أشرنا إلى الخطّ العام فيه بما يلي:

١ ـ التأسيس لمقولة فقه الوفاق ضمن فصول خمسة.

الأول: عرض فيه الأساس العقيدي للوحدة.

الثاني والثالث: عرض فيهما الأساس الفقهي للوحدة على مباني المذاهب المختلفة.

الرابع: عرض فيه الأساس الفقهي للوحدة عند الإمامية.

الخامس: عرض فيه بعض صحاح أهل السنة الحاكمة بنجاة الموحّدين وموقف نصوص أهل البيت عليهم السلام منها، وكيفية الجمع بين المطلقات الحاكمة بالنجاة والنصوص التي تشترط ولاية أهل البيت عليهم السلام.

٢ ـ وضمن فصلين آخرين انتقل من الأساس العقيدي والفقهي النظري إلى التطبيق الفقهي والعملي لفقهاء المذاهب الإسلامية، وهو يهدف إلى رفع ما قد يعلق ببال أحدٍ من الهنات وسوء الظنّ بالآخرين.

٣ ـ وفي الفصل الثامن استشهد بتأريخ السلف ممن تأوّلوا في عشرات الوقائع فخالفوا الجمهور، ولم يقدح ذلك عند المسلمين في إسلامهم وحرمتهم، بالرغم من أنّ بعض هذه الوقائع التي تأوّلوا فيها قد زجّت

بالمسلمين عامّة في أوضاع شديدة الخطورة وبالغة الصعوبة وكانت ذات ثمن باهض جدّاً.

ثم ناقش فتاوى التكفير وأبطلها.

٤ ـ وفي الفصول الثلاثة الأخيرة اتّجه إلى عوامل الفرقة وأسبابها[٢٧]، ولم يقنع ببيان الحكم وأدلّته ومبانيه؛ لأنّ الأسباب مادامت غير معروفة فإنّ الداء سوف يبقى مستمراً رغم المحاولات العلمية (الفقهية والأخلاقية) التي يقوم بها العلماء، وقد كان لزاماً على العالم أن يكون رائداً وطبيباً معالجاً للأمراض النفسية والثقافية التي تنتاب الأُمة.

ومن هنا ركّز على دور الكذّابين ودور بعض الكتّاب في التفرقة، والأسباب التي تبعد الشيعي عن السنّي والسنّي عن الشيعي بكشف المنفّرات من الطرفين تجاه الآخر. وبذلك يكون منهجه في المعالجة العلمية منهجاً فريداً وتأسيساً رائعاً قلّما نجد نظيراً له عند الفقهاء، وهو أشبه بالمنهج الذي اتّبعه أهل بيت الرسالة مستلهماً من القرآن الكريم في كيفية معالجة الأمراض الاجتماعية والنفسية والأخلاقية بالاهتمام بأسبابها وعللها، وتوظيف التجارب التاريخية لدراستها والاعتبار بها والانطلاق من الواقع باتجاه ما ينبغي وقوعه وتحقّقه.

١١ ـ الأُطروحة الفقهية والقضية السياسية:

وممّن سار على منهج الإمام شرف الدين وطرحه بشكل إيجابي واستثمره لقضايا عصرنا هو سماحة العلّامة الشيخ محمد مهدي شمس الدين ﷾ بقوله: «نقل الإمام شرف الدين أُطروحته الفقهية إلى صميم القضية السياسية للمسلمين في العصر الحاضر.. وهو بذلك يعالج قضية نعيشها الآن على مستوى الأُمة الإسلامية في جميع شعوبها ودولها»[٢٨].

وهذه القضية هي المشكلة الخطيرة التي تعيشها الأُمة بسبب النزعة

التكفيرية التي تعلنها بعض الحركات الإسلامية ضد كلّ من لا يحمل عقيدتها السياسية أو نزعة القطيعة مع المخالفين وإنكار ولاية المؤمنين فيما بينهم عند بعض الحركات الإسلامية الأُخرى.

ومن هنا ينبغي الاهتمام بفقه الوفاق للأسباب التالية:

١ ـ لضرورة بلورة العلاقات بين أتباع المذاهب الكلامية والفقهية، وترشيدها على أساس العلم الفقهي لا الأوهام الفقهية.

٢ ـ كما إنّ فقه الوفاق ضرورة لبلورة العلاقة بين الحركات الإسلامية فيما بينها من جهة، وفيما بينها وبين الأُمة والمجتمع وترشيدها من جهة أُخرى.

٣ ـ إنّ انبعاث الإسلام من جديد في عصرنا الحاضر كان مصدر رجاء للأُمة الإسلامية في أن تعود إلى أصالتها وتستعيد هويّتها وتحقّق وحدتها في مواجهة قوى الاستعمار التي استبدّت بها.

ولكن هذا التطوّر الخطير من الحركات الاسلامية وما تواجهه الحركات في ذاتها وما تنتهجه في كثير من تنظيماتها لأُسلوب التكفير على المستوى الفكري والنظري والعنف المسلّح على المستوى العملي بما هو نتيجة للموقف الفقهي من الآخرين، هذا التطوّر يوشك أن يزجّ الأُمة في مشكلة جديدة تهدّد قدرتها على الصمود أمام تحدّيات الخارج الثقافية والحضارية والعسكرية والاقتصادية والسياسية.

وهذا الواقع يستدعي من فقهاء الأُمة إحياء هذا الحقل الفقهي الهامّ في الفقه السياسي التنظيمي الإسلامي [٢٩].

وهكذا يحتفظ الإمام شرف الدين بريادته للفقهاء في هذا الحقل المهم والذي تميّز فيه بما يلي:

١ ـ بالاستقصاء الكافي لآراء أرباب المذاهب.

٢ ـ والتوجّه إلى تأريخهم وتأريخ المسلمين.

٣ ـ الرصد الجيّد للأدلة القرآنية والنصوص النبوية وما تلاها من نصوص أهل البيت عليهم السلام.

١٢ ـ على خطى المنهج الوحدوي للإمام شرف الدين:

إنّ تعميق فقه الوفاق وربطه بالموقف السياسي الإسلامي يتطلّب من المصلحين والدعاة الى نهضة الأُمة وإحيائها المشاركة الجادّة والميدانية في حقلي التنظير والعمل بشكل فردي ومؤسّساتي وبكلّ ما أُوتوا من حول وقوّة وقدرة على الإبداع والإعمار.. وقد أحدثت مواقف الإمام شرف الدين وكتبه تيّاراً نهضوياً في هذا الاتجاه تبلورت من خلاله شخصيات وحدوية فذّة، كالشيخ محمد رضا المظفر، والسيد محمد تقي الحكيم، والشيخ اسد حيدر، والسيد الشهيد محمد باقر الصدر، والسيد مرتضى العسكري، والشيخ محمد جواد مغنية، والسيد موسى الصدر، وغيرهم.

على أنّنا قد أفردنا مقالاً مستقلّاً لاستشراف هذا الدور التكميلي لعلّنا نوفّق لنشره في فرصة أُخرى، إن شاء الله تعالى.

الهوامش

(١) الإمام السيد عبد الحسين شرف الدين مصلحاً ومفكراً وأديباً: ٤٢. وقد جاء في عناوين الكتب الفقهية التي ألفها العلّامة يحيى بن سعيد الحلي (م ٦٨٩هـ): «جامع الخلاف والوفاق بين الإمامية وأئمة الحجاز والعراق».

(٢) يعتبر كتابه «الفصول المهمة في تأليف الأُمة» من أقدم كتبه وذخائره المتبقية بعد الهجوم الفرنسي على داره ومكتبته التي أُحرقت وسُرقت. وكان قد ألّفه سنة (١٣٢٧هـ) ونشر جملة من فصوله في مجلة «العرفان» الصيداوية التي أسسها الشيخ أحمد الزين في السنة نفسها.

وقد جاء في مقدمة المؤلّف ما نصّه: «لا تتسق أُمور العمران ولا تستتب أسباب الارتقاء ولا تنبثّ روح المدنية ولا تبزغ شموس الدعة من أبراج السعادة ولا نرفع عن أعناقنا نير العبودية بيد الحرية، إلّا باتفاق الكلمة واجتماع الأفئدة وترادف القلوب واتحاد العزائم والاجتماع على النهضة بنواميس الأُمة». وفي اسم الكتاب ومقدّمته ومضمونه ومحتواه ما يكفي لاستلهام مصطلح «الوفاق» و«فقه الوفاق» منه وإن لم يكن كتاباً فقهيّاً مصطلحاً في ظاهره ولكنه عند التأمل لا يعدو أن يكون تأسيساً فقهياً جديداً ورائعاً بمنهجة حديثة بالنسبة إلى لغة الفقه المتداول ولغة الفقهاء المعروفة لكل من مارس مطالعة الكتب الفقهية عند الإمامية.

(٣) وفي كتابه «أجوبة مسائل جار الله» الذي ألّفه سنة (١٣٥٤هـ) يقف المؤلّف أمام محاولة خطيرة وهي محاولة تفريق جماعة الأُمة وفصم عروتها وتمزيق وحدتها بقوله: «وبعد، فقد وردت عليَّ مسائل... فما وقفت عليها حتى أوجست من مغازيها خيفة على الوحدة الإسلامية أن تنفصم عروتها وتتفرّق جماعتها...».

بينما اعتبر العلّامة شمس الدين باقي آثاره التي نصّ عليها وسمّاها وهي: «مسائل فقهية» و«السجود على التربة الحسينية» و«نقل الجنائز» نموذجاً لفقه الخلاف. ويبدو أنه قد استلهم ذلك من محتواها وقد سبق اسم «مسائل خلافية» لكتابه «مسائل فقهية» وتداول هذا الاسم وغيّر فيما بعد، وهو يتكفّل بيان مسائل فقهية خلافية اشتهر

الخلاف فيها بين الشيعة وغيرهم من المسلمين .

(٤) انظر : سلسلة مقالاتنا «دليل المحقق لدراسة مراحل تطور الاجتهاد في الفقه الإمامي» المنشورة في مجلة فقه أهل البيت عليهم السلام الأعداد ١٤ ـ ١٧ حيث تجد جرداً مستوعباً لعناوين ما ألفه فقهاؤنا من كتب ورسائل فقهية على مدى عشرة قرون .

(٥) انظر : الهامشين رقم ٢ و ٣ .

(٦) الإمام السيد عبد الحسين شرف الدين مصلحاً ومفكراً وأديباً : ٤٢ .

(٧) لقد أشار الإمام شرف الدين في مقدمة كتابه «الفصول المهمة» ، إلى دليل عقلي وأدلة نقلية قرآنية هي مصدر تشريع مبدأ الوحدة مستعيناً بفلسفة تشريع هذا المبدأ الحيوي النهضوي ، ثم أردفه بفصل خاص ضمّنه النصوص القرآنية ونصوص السنة النبوية ـ الناصّة على تشريع مبدأ الوحدة والألفة ووجوب الالتزام به كمبدأ إسلامي ، ثم دخل في بحوث تفصيلية تقوم بدور تبديد أسباب النزاع والخلاف من وجهة نظر فقهية عند عامة مذاهب المسلمين وحسب متبنّياتهم ، ثم عرّج على أسباب التنافر النفسية والسياسية التي تكمن وراء كل محاولات التفرقة والتشتّت بين المسلمين .

وفي «أجوبة مسائل جار الله» قد ردّ بشكل علمي رفيع على جملة من أسباب ومحاولات الفرقة مبدداً كل الشبهات والإثارات والتشبثات التي نشرت باسم أسئلة يبحث جار الله عن جوابها وصولاً إلى الحقيقة حسب زعمه .

(٨) وفي كتاب «المراجعات» نلاحظ تصدّيه لأهم مسألة من مسائل الخلاف وهي مسألة الإمامة والقيادة السياسية العامّة التي سبّبت تنازع الصحابة عليها ؛ لما لها من أهمية قصوى في حياة المسلمين ، وتنقيح أدلتها ، وكيفية تعامل الصحابة معها ، وما تركته من آثار في حياة المسلمين ، فقد قال قدس سره في مقدمته : «أما فكرة الكتاب فقد سبقت مراجعاته سبقاً بعيداً ، إذ كانت تلتمع في صدري منذ شرخ الشباب التماع البرق في طيّات السحاب ، وتغلي في دمي غليان الغيرة ، تتطلّع إلى سبيل سويّ يوقف المسلمين على حدّ يقطع دابر الشغب بينهم . . . ثم يسيروا معتصمين بحبل الله جميعاً ، تحت لواء الحق إلى العلم والعمل ، إخوة بررة يشدّ بعضهم أزر بعض» .

وفي «النص والاجتهاد» عطف النظر إلى نوع آخر من أسباب الخلاف والفرقة ـ التي تنضمّ تحت شعار التأويل للنصوص الصريحة ـ كان ينبغي كشفها ليُعلم مَن هُم مسبّبو الفرقة على مدى التاريخ ، وكيف يدبّ الخلاف إلى جسم الأُمة باسم الاجتهاد ،

ثم حمل الناس على معارضة نصوص الكتاب والسنة طوعاً وكرهاً بكل قوّة ، وهذه ثغرة كبيرة تحتاج إلى علاج علمي وثيق ، وهذا ما قام به الإمام شرف الدين في آخر كتبه النهضوية التي تهتم بتأصيل الوحدة بشكل جذري من خلال البحث والتحقيق في مصادر التراث والتاريخ .

(٩) التوبة : ٣٣ . الفتح : ٢٨ . الصف : ٩ .

(١٠) انظر : موسوعة الفقه الإسلامي طبقاً لمذهب أهل البيت عليهم السلام ١ : ١٨ ، ٣٤ ، ٤٧ .

(١١) الأنبياء : ٩٢ .

(١٢) حديث معروف متواتر ، تجده بأسناده ونصوصه التي استقصتها رسالة دار التقريب القاهرية . وانظر : الصواعق المحرقة : ١٤٨ . المراجعات (للإمام شرف الدين) : المراجعة رقم ٨ .

(١٣) انظر ما جاء في نهج البلاغة حول أسباب صمت الإمام علي عليه السلام وصبره على ابتزازهم حقّه المشروع في الخلافة ، ومسالمته للخلفاء الذين لم ترشّحهم الأُمة ولا النبي القائد ، قال عليه السلام : «صبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجى ، أرى تراثي نهباً» ، وقال عليه السلام : «حتى رأيت راجعة الناس يدعون إلى محق دين محمد » .

(١٤) انظر : «الإعلام» و «الإشراف» للشيخ المفيد ، و «الانتصار» و «الناصريات» للسيد المرتضى علم الهدى ، و «الخلاف» للشيخ الطوسي ، و «تذكرة الفقهاء» و «منتهى المطلب» للعلّامة الحلي ، و «جامع الخلاف والوفاق بين الإمامية وأئمة الحجاز والعراق» لابن سعيد الحلّي .

(١٥) انظر كتبه : «إلى المجمع العلمي العربي بدمشق» و «أجوبة مسائل جار الله» و «مسائل خلافية» و «النص والاجتهاد» و «المراجعات» و «الفصول المهمة» . وراجع : الهوامش السابقة برقم ٢ و٣ و٦ و٧ . وقد نشرت بحوث «مسائل خلافية» ـ وهي التي عرفت فيما بعد بـ «مسائل فقهية» ـ على صفحات مجلة «العرفان» الصيداوية ومجلة «رسالة الإسلام» التقريبية وهي بحوث فقهية مقارنة بين الإمامية وسائر المذاهب الإسلامية في أبواب الصلاة والصوم والنكاح . وفي «أجوبة مسائل جار الله» تعرّض لبحوث في الصحبة والصحابة والإرث والتقية والحج والبداء ، كما تعرّض لمصادر الحديث وما دخلها من تلاعب غير مرضي بعد أن ردّ على الافتراءات التي أثارها البعض ، سالكاً طريق النصح بإشفاق ، وقائلاً لأرباب المجمع ما نصه : «إنكم ـ معشر القوّامين على

هذا المجمع وعلى مجلّته - تبوّأتم بهما مبوّأ قوامين بالعلم، مصلحين، مثاليين، وقادة فكر ورأي، ودعاة إلى الخير، وسعاة في لمّ شعث، وتوحيد عزائم وهمم وأهداف. ومن تبوّأ هذا المبوّأ بصدق جامعاً لشروطه كان على الأُمة أن تخلص له النصح، وتصدقه الرأي والمشورة». ثمّ دعاهم إلى الوحدة، وعاتبهم بحفيظة، واحتج على عدوانهم بالبرهان. انظر: مطلع الكتاب ومقدمته، طبعة دار المحيط - كربلاء المقدّسة، العراق.

(١٦) ألّفه سنة (١٣٢٧هـ)، ونشره على صفحات مجلة «العرفان» الصيداوية منذ سنة (١٣٢٧هـ).

(١٧) انظر: الهامشين رقم ٧ و ١٤.

(١٨) انظر كتابه: «أصل الشيعة وأُصولها»، وكتابه «تحرير المجلّة».

(١٩) انظر: عقائد الإمامية (للمظفر)، والغدير في الكتاب والسنّة (للأميني).

(٢٠) في مقدمته على «النص والاجتهاد».

(٢١) في كتابه «معالم المدرستين».

(٢٢) انظر كتابه: «الإمام الصادق والمذاهب الأربعة».

(٢٣) انظر: رسالة الإسلام القاهرية، وما صدر عن دار التقريب القاهرية.

(٢٤) المتحوّلون في ثلاثة أجزاء جمعها هشام آل قطيط وهو من المتحوّلين.

(٢٥) وقد طبعت بأسماء مختلفة، منها تسميتها بـ«مسائل خلافية»، كما طبعت في عدة مجلات، مثل «العرفان» الصيداوية و «رسالة الإسلام» القاهرية، واختيرت كمنهج دراسي للفقه المقارن في بعض المدارس والحوزات العلمية المعاصرة.

(٢٦) انظر: الإمام السيد عبد الحسين شرف الدين مصلحاً ومفكّراً وأديباً: ٥٠ - ٥٢.

(٢٧) انظر: الفصول المهمّة، تحقيق المرحوم المغفور له الدكتور عبدالجبّار شرارة، ط - المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية.

(٢٨) الإمام السيد عبد الحسين شرف الدين مصلحاً ومفكراً وأديباً: ٥٢.

(٢٩) المصدر السابق: ٥٣ - ٥٤.